# بروفة للموت

# بروفة للموت

راح يضغط جسمه بكل أعضائه على الأرض محاولاً الالتصاق بها، حتى يزيد شعوره بالطمأنينة أكثر ويقوي ارتباطه بالأمان.

ليس الأمر غريبًا. إنه خارج من الموت. لن يصدقه أحد فيما بعد عندما يحكي لصحبته بأنه تعرف على الموت حقًّا! ذلك مؤكد، لقد خرج من البحر بعد ست ساعات من الصراع مع الأمواج.

جاء رفيقه حسام وقال باستهزاء: تتحدَّى! كان موضوع التحدي على من يستطيع الاحتمال في السباحة أكثر. وراحا يتوغلان بين الأمواج في العمق، كلٌّ يظهر قدرته أكثر لم يشأ أحدهما أن يتنازل للآخر أو يسأله إن هو تعب أم لا. توقفا لاستراحة قصيرة عند مراكب الصيادين المنشورة عند الأفق، كانوا يسبحون في الأيام الماضية حتى يصلوا إليها وحسب.

كانت آخر مرة ينظرون فيها إلى الشط.

تقدما في عرض البحر ولم يلتفتا إلى الخلف بالمرة.

بعد ساعتين من السباحة المتواصلة جاء سؤال حسام "تعبت؟" في اللحظة التي كان حيان سيسأله السؤال نفسه، إلا أنه أجاب. "هـء!" من دون أن ينظر إليه بالمرة.

التفت حسام إلى الشط ثم صرخ بفزع: العمى! ولك ضعنا. شوف. ولك شوف وين صرنا! فرد حيان من دون أن يلتفت إليه إمعانًا احتقاره: "كمل! بسرعة تعبت؟" ولكنه ألح عليه أن يلتفت.

بان شط البسيط وفي خلفيته يبرز الجبل مثل تل صغير ملقى عليه سجادة خضراء، حتى الشجيرات المعمرة السمينة التي ما استطاع أن يحيط جذعها مع أحد رفاقه، وتسلقها يوم البارحة حتى رأى آخر البحر بدت نثرة صغيرة في نسج أخضر. كان من الممكن للناظر أن يتمتع بروعة هذا المنظر لو أنه واقف على أرض صلبة.

"إزا تعبت لنرجع" قال لحسام إمعانًا في احتقاره، وفي تأكيد انتصاره.

صفعته موجة كادت تعميه!

من سحب مراكب الصيادين إلى الشط؟ اندهش في بداية الأمر، لم يكد يدرك حجم المشكلة، مد قدميه عميقا حتى يجد أرضا ما يقف عليها فما وصل لشيء، عاد للصعود فصفعته موجة أشد وأقسى، لم تكن لديه خبرة بأمواج الأعماق الغدارة، صار مع حسام أمام مواجهة من نوع مختلف، أدرك أن هذه المنافسة الغبية ربما تودي به إلى الموت، لقد سحبهما التيار إلى عرض البحر وعليهما أن يواجهاه، ويعودا بعكسه، لقد انتهت المنافسة ولا بد من التضامن الكامل حتى ينجوا.

بدأت الأمواج تعلو وتصفعهما، ثم تقذفهما صوب العمق، صار التقدم لعشرة أمتار يحتاج إلى جهود كبيرة، أما قيامهما باستراحة أو مجرد استرخاء بسيط يؤدي إلى قذفهما إلى العمق عشرات الأمتار.

مر مركب بعيد، لوحا وصرخا، لكنه لم يسمع، إنه مركب لأناس يتنزهون، ويتسمعون إلى صباح فخري، عادا للصراع مع الأمواج وصلا إلى طرقة لا بد منها بإخفاء الرؤوس تحت الماء أثناء التقدم في السباحة، فنجحا في ذلك وصار الأمل أكبر في الوصول إلى الشط، إلى أغلى مكان ممكن حيث الأرض والرمل، حيث يمكن الوقوف.

صار التقدم شيئا ممكنا صار يحس أن قدميه قد تحولتا إلى زعانف سمكة لا تتعب من السباحة. صرخ حسام! لقد تشنجت ساقه وامتد التشنج إلى كل جسمه، صار مثل خشبة مستقيمة لا تقدر أن تأتي بحركة، لمثل هذه الحالة لا بد من أرض صلبة يقف فوقها حتى يفك التشنج، غطس حيان عميقا، نظر بذعر إلى الأعماق فلم ير أي أرض، فاقترب منها وعض ساقه، فانفك التشنج، ارتاح، شكره كثيرا، بينما حيان يفكر فيما رآه تحت، وبه شيء من اليأس؛ لن يصلا ببساطة، والنجاة صعبة.

صارا يسبحان بقوة وعزيمة وصارت مشاعر اليأس والأمل بالنجاة تتوارد مع كل ضربة ومع كل خطوة ومع كل نبضة قلب، حتى أن ذاكرتها أفرغت تماما، نسيا كل ماضيهما، كأنهما لم يولدا إلا عندما أدركا هذه المشكلة العويصة، حتى مجرد التكلم الذي يساعد على النسيان والمقاومة كان صعبا جدا. ومع ذلك فقد كانا يتقدمان صوب الشط، وإن ببطء شديد.

خفت حدة الأمواج وبدأ الناس يظهرون على الشط والمراكب تقترب شيئا فشيئا، علمان أنها لا زالت في مكانها ولم يسحبها أحد إلى الشط، مع ذلك، ازداد الأمل كثيرا عندما صارا على بعد عشرين مترا منها، صارا يتكلمان ويصرخان ويشجع أحدهما الآخر، ولقد أمسكا حبال المراكب في اللحظة التي كادا يموتان فيها، كانا في غاية التعب والإنهاك، لدرجة أن مجرد التمسك بحبال المراكب يحتاج لجهد مضاعف، كانت الحبال مجرد أرض مؤقتة ليرتاحا عليها، وراحا يتكلمان عن الأكل، كان الجوع قاسيا وعنيفا، ولا يمكن أن يحتمل، اللحم المشوي، والرز والفريكة والجبن والدراقن والخبز، آه! أين الخبز؟ تمنى حيان أن يجد شقفة خبز يابسة وعفنة. استرسل حيان في الكلام في حين سكت حسام، ولم يعد يجيبه، سكت بالمرة!!

ناداه! فلم يجبه، لم يبق إلا القليل حتى يصلا. ناداه ثانية، سبح برعب إلى الجانب الآخر من المركب، مات؟!! سبح بسرعة مجنونة، فلم يجده بل وجد يده ممسكة بالحبل بتشنج وجسمه مرتخ، تحت الماء.

كمشه من شعره وهبطت عليه قوة مضاعفة وأخذ يسبح بيد واحدة، ويحاول أن يكلمه، لكن من دون جدوى، وقد قطع المسافة إلى الرمل بسرعة كبيرة. سيظل مستغربا لفترة طويلة من أين أتته هذه القوة؟!

سلم حسام لرفاقه المنتظرين عن الشط وارتمى على الرمل مثل خرقة بالية، أطرافه تراوح مثل لعبة خشبية مرتخية وخالية من أي إحساس أو قوة، وبداخله جموح للالتصاق بالرمل، كان ما زال بينه وبين الموت شعرة، أخذ يضغط على الأرض بكل أجزاءه فاقدًا الإحساس بالأشياء غير قادر على تفسير شيء، وكأنه في دنيا غير دنيا لاصقًا أذنه بالرمل يتنصت إلى الأرض ويتعرف بالأشياء وكأنه يراها للمرة الأولى، كان الشط جدارا كبيرا من الرمل، والبحر جزأه التحتاني، والأشجار جزأه الفوقاني، النوارس تصرخ بجانب البحر، واليخوت تمر من فوقه بعنجهية وتطلق زمامیرها، السابحون والسابحات يتراكضون مثل مخلوقات بدائية، يتضاحكون ويتصايحون ويتشاجرون على كرة صغيرة.

"باك شي حيان؟"

"شو صار لك؟"

"ولك رد علينا!"

"نروح لنجيب لك دكتور؟"

تنصت لكلام زملائه ولم يكد يفهم شيئًا، وكأنهم مخلوقات غريبة تتكلم لغة كوكب آخر ، كان عقله واقفًا عن العمل. اقتربوا منه كي يرفعوه عن الأرض، فصرخ بذعر:

"اتركوني!"

فتركوه مثلما يريد. ثم صرخ ثانية بأعلى صوته:

"بدي آكل"

أول شعور شعر به، وكأنه لم يأكل كل عمره، أخذوا يلقمونه الطعام في فمه مباشرة من دون أن يغيروا في وضعية جسمه، يأكل وهو يراقب الشط.

وقف بعد ساعة، تمطى كقطة، تفقد كل أطرافه وتحسسها جيدًا، راقب الناس بفرح شديد، التقت عيناه بعيني حسام، ابتسم الناجيان من موت محقق في وجه بعضهما ابتسامة المنتصر.

نظر إلى الأرض!

لم يطمئن بعد! ما زال قلقًا! ما زال يشعر أن الأرض ليست من تحته! كان المكان الذي ارتمى فوقه قد حفر في الأرض على قدر جسمه تماما حفرة تزيد عن عشرة سانتي مترات، وأعطاه الرمل من الحنان ما لم تستطع أمه أن تعطيه إياه.

قرر أن يحفر له قبرًا.

في المكان نفسه ولكن أعمق من ذلك، وسع الحفرة جيدًا ثم قاسها لكي يرى إن كانت تستوعبه، حفر قليلا عند القدمين وترك جزءًا لكي يجعله

وسادة ثم نام، تمدد مثلما رأى جده وهو ميت وجرب أن يغلق عينيه حتى يختبر الموت.

لم تنفع التجربة ما زال يحس ويسمع الأشياء. طلب من أحد أفراد الشلة أن يهيل فوقه التراب، ففعل، صارت الأرض مستوية ولا يظهر إلا رأسه فقط، كان شعوره بالطمأنينة يزداد كلما زادت كمية الرمل الملقاة فوقه، وصار كل من يأتي يهيل عليه التراب من جديد ثم أتت سمر ووضعت حجرًا فوق بطنه وغصن تين عند قدميه وراحت تلقي عليه التعازي ويطلبون من الله أن يرحمه ويدخله فسيح جنانه، وراح الجميع يداعبونه فأقاموا مجلس عزاء مرتجل وانقسموا إلى فرقتين الأولى أهل الميت والآخرون غرباء يقومون بإلقاء التعازي، الرجال حملوا المسابح ونظروا إلى الأرض والنساء تتباكين.

أما هو فلا يكاد يدرك كلمة مما يقولون، لأن الشعور بالراحة راح يتزايد عبأ كل أوصاله وملأ كل خلية من جسمه، شعور لم يشعره بمثله كل عمره، بل كان يطالب بإلحاح شديد أن يهيلوا عليه كمية أكبر من الرمل، وكان الجميع يفعلون مثلما يريد حتى صار فوقه تل كبير يزيد ارتفاعه عن المتر.

كانت أعضاؤه تتثبت في مكانها وتتشبث لا تريد أن تغادر هذا المكان المستقر إطلاقًا. سوف يكتب في وصيته أن يهيلوا فوقه كميونا من هذا الرمل بعد موته، على أن يجلبوه من شط البسيط حتى يشعر براحة شبيهة.

لا! لن يخاف من الموت بعد اليوم.

غادر الجميع بعدما ملوا هذه التمثيلية الفاشلة كل إلى غايته، تنهد بعمق، واستسلم لشعور رائع.

بعد قليل، شعر بضغط وثقل الرمل على جسمه، ولم ينتبه إلى أن تنفسه كان يزداد صعوبة مع الوقت، حاول تحريك يديه وأقدامه، لم يستطع كان حجم الرمل كبيرًا وثقيلا حقًّا، صار يتنفس بمشقة كبيرة. قرر أن يطلب المساعدة من أول قادم حتى يزيح عنه هذا العبء الكبير، طال الانتظار وبدأ يشعر بالضيق والاختناق الحقيقي.

راح يصرخ لما شعر بالخطر على حياته، في بداية الأمر تبين أن هذه التجربة في غير محلها، صرخ! صرخ بكل ما يستطيع، لم يجبه أحد، فسكت، رأى الجميع يلعبون بالكرة، بينهم شريكه في التجربة حسام، المنسحب منها.

قرر من دون تراجع أن يمضي في التجربة وحده إلى آخرها، فلم يكن بيده فعل شيء آخر، ارتفعت يده من تلقاء نفسها! ارتفت من دون أدنى جهد، كذلك ارتفعت يده الثانية، ورجلاه، وراح الرمل يتصاعد مثل الدخان، تمسك بالحجر الموضوع وراء رأسه، ولكن شيئا ما كان يجذبه إلى فوق. مالت الأشجار على الأرض ميولا انسيابيا لينا ووقعت مثل جلالة ضخمة، وكأنها جدار من الورق المقوى.

رمى أحدهم الكرة إلى الأعلى، طارت إلى السماء، ولم تنزل إلى الأرض بالمرة. أفلتت يداه من الحجر، وأخذ يتصاعد ويرتفع، يحلق ويرتقي، صار يرى كل الأشياء على الشط من فوق وهي تبتعد شيئا فشيئا، رأى تل الرمل الذي سكن تحته، ظل يرتفع حتى دخل في غيمة بيضاء، صار العالم أبيض، غاب عنه المنظر الجميل، حلق أكثر فخرج من الغيمة وصار فوقها وبانت أجزاء من المشهد الجميل، مطابقة لما رآه عندما ضاع في عمق البحر، ولكنه لم يصعق هذه المرة ولم يصب بذعر، بل كان يتابع المشهد وكأنه واقف على أرض حقيقية صلبة وهو يحلق ويرتقي، يحلق ويرتقي.